الفصل الثانى

أغراض قصص الحب

ربما كان لبعض هؤلاء المحبين وجود تاريخى، فقد يكون التاريخ شاهد يومًا قيس بن الملوح، أو قيس بن ذريح.

على أن الذى أشك فيه هو تلك الحكايات والأساطير التى دارت حولهم فإن عقل المؤرخ لا يستطيع أن يضفى على هذه القصص صفة الصدق الواقعى والوجود التاريخى.

وكل ما هنالك أن هذه الأسماء اشتهرت وذاعت، فانتقلت من مجال الدلالة على شخصية بعينها إلى مجال الرمز لأشياء يحكيها الناس ويقصون حولها الغرائب والمخترعات. جاء فى الأغانى أن ابن المولى أنشد لنفسه :

وأبكى، فلاليلى بكت من صبابة إلىّ، ولا ليلى لذى الود تبذل

وأخنع بالعتبى، إن كنت مذنبًا وإن أذنبت، كنت الذى أتصل

فقال له أبو السائب وعبيد الله بن مسلم بن جندب: من ليلى هذه حتى تقودها إليك؟ فقال لهما: ماهى والله إلا قوسى هذه سميتها بليلى.

وبعض الشعراء قد اعترف بأن هذه الأخبار من خياله واسترساله فحين وقفت ليلى الأخيلية على قول توبة:

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه وأطراف عيدان شديد سيورها

غضبت وأمسكت عن كلامه برهة فتوسل إليها وعرض عليها أنه سيسوق نفسه السم إن لم تكلمه، فجمعت ثلاثة من أهلها بحيث يخفون عليه. فلما آنسته قالت: أى خدر دخلت معى حتى تقول ما تقول؟ فقال: هذا استرسال الشعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنصل، ففرحت بسماع أهلها ذلك. ومعاوية بن أبى سفيان كان يدرك أيضًا تزيد خيال الشعراء والقصاص فى هذا، فحين شاعت قصة أبى دهبل مع عاتكة استدعاه معاوية وسأله عن ذلك فتبرأ منه. فقال له معاوية: أما من جهتى فلا خوف عليك لأن أعلم صيانة ابنتى نفسها وأعلم أن فتيان الشعراء لم يتركوا أن يقولوا فى النسيب فى كل من جاز أن يقولوه فيه.

وكثير من القدماء لم يطمئنوا إلى هذه الأخبار، فداود الأنطاكى يذكر أن بعض أخبار قيس لم تصح عنده مثل خبر قبضه على الجمر بكلتا يديه حتى احترقتا، ومثل خبر ذهابه إلى ليلى يقترض منها سمنًا،

فخرجت إليه بنحى وجعلت تسكب فى وعائه، وهما يتحادثان حتى غرقت أرجلهما ومثل خبر مجيئه إلى ليلى يستقبس نارًا فكان يتحدث معها ويقطع من برد عليه يعلف النار، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى حتى صار عريانًا. وصاحب الأغانى يذكر قصة حب لجارية التق بها الأحوص ومعبد على غدير وكانت تنشد شعرًا للأحوص ثم عقب على ذلك بقوله: «وليس يشبه الشعر شعر الأحوص ولا هو من طرازه. وكذلك ذكر عمر بن شبه فى خبره».

وهذه الأخبار كان سبيلها إلينا الرواية والرواة.

والرواة لم يكونوا يتحرون الدقة فى أمثال هذه الأخبار التى يقصد بها إلى التسلية والظرف وإطراف العامة. وإليك مثالا على أنهم لم يكونوا يتحرون الدقة والتحديد. فإننا نعرف أن قيسًا لم يكن ابن عم لبنى، بل إن أباه عارض فى تزويجه منها لأنها غريبة، وهو يريد أن يزوجه إحدى بنات عمه، ولكننا نقرأ فى مصارع العشاق ما يفيد أن لبنى كانت ابنة عم قيس فقد دخل عليها زوجها وهى تمسك بغراب وتنشد شعراً، فسألها عن ذلك فقالت: «دعانى أن ابن عمى وحبيبى قيسًا أمرهن بالوقوع فلم يقعن».

وكان الرواة حين أرادوا جمع اللغة ومعرفة أخبار العرب يشافهون الأعراب وينقلون عنهم. وكان الأعراب يعرفون شغف هؤلاء بهذه الأخبار وشدة ولعهم بها فكانوا يتزيدون عليهم ويختلقون لهم الحكايات، ليروجوا بضاعتهم وليحسنوا فى أعين هؤلاء الرواة، فحين

ورد داود بن متمم بن نويرة إلى البصرة جعل أبو عبيدة وابن نوح يسألانه عن شعر أبيه. فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه وكره أن تنقطع عناية الرواة به، أخذ يضع على أبيه ما لم يقل. وحماد الراوية كان يكذب ويتزيد فى أخباره كما ذكر ابن سلام فى كتابه «طبقات الشعراء».

على أن الأمر لم يقف عند تكذيب لأخبار قيلت حول فريق من الشعراء المشهورين، بل تعداه إلى نفى شخصيات بعينها، حيكت حولها أخبار كثيرة. فقيس ذلك المجنون الذى اشتهر أمره بين الناس ينكره فريق من الناس كالأصمعى. وقد نفى عامرى أن يكون قيس من قبيلتهم المعروفة بالجلد وقال: «انما تموت من الحب هذه اليمانية الضعاف قلوبهم»، ومن الرواة من يزعم أن هذا الشعر لفتى من بنى مروان كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فاستتر وراء هذا الاسم ونظم كل الأشعار التى تنسب إلى المجنون، والأصمعى يقول: «رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم: مجنون بنى عامر وابن القرية فإنهما وضعهما الرواة».

واشتهرت هذه القصص بين الناس ولقيت رواجًا واسعًا عند العلمة، فانطلق كثير من المؤلفين، يرضون هذه الحاجة العارمة، وجعلوا يكتبون كتبا عن هؤلاء العشاق، فظهرت أسماء لمؤلفين ألفوا حول هذه الأخبار مثل: عيسى بن داب وهشام الكلبى والهيثم بن عدى وغيرهم. وقد أورد ابن النديم ثبتًا بتلك الكتب فذكر تحت

عنوان : «أسماء العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والإسلام» وألف في أخبارهم نحواً من اثنين وأربعين كتاباً. وذكر تحت عنوان : «أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر» نحواً من ثمانية وثلاثين كتاباً. وذكر تحت عنوان : «أسماء الجانب المتطرفات» نحوًا من اثني عشر كتابًا. وذكر تحت عنوان «أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس» نحوًا من ستة عشر كتاباً. ثم ختم هذا بقول محمد بن إسحاق : «كانت الأسمار والخرافات مرغوبًا فيها مشتهاة أيام خلفاء بني العباس ولاسيما في أيام المقتدر، فصنف الوراقون وكذبوا، وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه أحمد بن محمد بن دلان وآخر يعرف بابن العطار وجماعة».

وكان ذلك لا يهمني في شيء. لا يهمني أن يكون لهذه القصص صدق واقعي ووجود تاريخي، فقد يهم هذا رجلا مؤرخًا، أما في كتابي هذا فإنني أتجاوز ذلك إلى أمر آخر.

لا يهمني أن يكون قيس أو جميل أو عروة قد وجدوا تاريخيًا. وإنما الذي يهمني هنا أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية، ولهذا لن أتطلب منها الصدق الواقعي والوجود التاريخي، وإنما سأسلك مسلك باحث الأدب، فأنظر ما في هذه القصص من دلالات أدبية وإشارات فنية.

فمثلا لن أنظر إلى كتاب «الأغاني» أو «تزيين الأسواق» على أنهما كتابا تاريخ أولا وقبل كل شيء، بل سأنظر إليهما على أنهما كتابا

أدب أولا وقبل كل شيء. وربما كانت هذه النظرة هي التي أرادها المؤلفان. فالأنطاكي يرى أن الغرض من كتابه هو إراحة النفس بالأخبار ولطائف الحكايات والأشعار، حتى تنشط وتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب، وأنه حين اغترب بمصر وأصبح لا يجد - وهو الغريب - من يؤنسه رأى أن يريح نفسه فيمتطي غارب الأدب ووقع اختياره على اختصار أسواق الأشواق وأبو الفرج يتحدث في مقدمة كتابه عن منهجه وأنه لم يرد ترتيب الكتاب على طرائق المغنين أو طرائق الغناء «وإذا كان هذا هكذا، فما رتبناه أحلى وأحسن ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة. ومليك إلى سوقه وجد إلى هزل، أنشط لقراءته وأشهر لتصفح فنونه».

فإذا اتفقت معكم على هذا المنهج، وهو أنني لا أريد من قيس أو غيره شخصيته التاريخية وإنما أريد شخصيته القصصية الأدبية - إذا اتفقت معكم على هذا فاسمحوا لي أن أنتقل إلى نقطة هي أشد التصاقًا ببحثنا وهي:

هل كان لهذه القصص أغراض، أو أنها كانت خبط عشواء، تنبت كنبات الصحراء بدون غاية مرسومة أو هدف معلوم؟!

١ - قصص لتفسير أبيات شعرية:

تردد الغناء في أرجاء الجزيرة العربية وملأ أركانها، فلم يدع شيخا ورعًا، ولا حاكمًا حازمًا، ولا امرأة محجبة، إلا وقد مسه هذا الطائف.

وقد أدى الغناء بدوره إلى شيوع الشعر الغنائي، الذي يبدو ويعيد في قصة الحب، فغلب على الحجاز في ذلك الحين هذا النوع من الشعر ولم يترك مكانًا مرموقًا لشعر الهجاء، أو نصيبًا موفورًا لشعر المديح أو لشعر السياسة، حتى إن بعض المشايخ المحافظين كأبي الأسود الدؤلي، وبعض الزهاد الورعين كالقس كانت لهم أشعار تغنى وتلحن. وشاع هذا الشعر بين طبقات الشعب حتى رأينا عجوزًا تحمل روث البهائم تنتقد أبياتًا لكثير وتفضل عليه امرأ القيس فيرشوها بمطرفه.

وفي بعض هذه الأشعار بذور حكايات وقصص. كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته وما لاقى من الصعاب. وحين انتشرت هذه البذور وتلك الإشارات أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التي تفسر الأبيات وتصل بعضه ببعض.

وهذا يكشف لنا عن السر الذي نلاحظه في بعض القصص، إذ يلاحظ أن أشعارها جيدة وقوية، وأن هيكل الحكاية في درجة أقل جودة وقوة. وتفسير ذلك سهل وهو أن تلك الأشعار أنشدها شعراء معروفون قد وهبوا تلك الطاقة الشعرية ووقفوا أنفسهم على القيام بهذه الموهبة، فهم من طبقة الخاصة. أما واضعو بعض هذه القصص فقد يكون من طبقة العامة الذين اختصموا حول أشعار تلك الطبقة وأرادوا تفسيرها وشرحها.

(أ) أنشد كثير تلك الأبيات:

وقضّين ما قضين ثم تركنني ... بفيفا خريم، قائماً أتلدد
تأطّرن حتى قلت لسن بوارحاً ... وذبن كما ذاب السديف المرهد
أقول لماء العين: أمعن لعله ... لما لا يرى من غائب الوجد يشهد
فلم أر مثل العين ضنت بمائها ... على، ولا مثلي على الدمع يحسد
وبين التراق واللهاة حرارة ... مكان الشجي، ما إن تبوح فتبرد

قال كثير هذه الأبيات وشاعت بين الناس، وفيها حديث عن فيفا خريم وعن بكاء كثير صاحب عزة وعن خيبته وحسرته، فلا أقل من أن يأخذ القاص أو الخيال الشعبي هذه المواد فيحوك حولها قصة، وهذا نصها كما جاءت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة:

«خرج كثير إلى مصر وعزة بالمدينة فاشتاق إليها، فقام إلى بغلة له فأسرجها وتوجه نحو المدينة ولم يعلم به أحد. فبينا هو يسير في الليه بمكان يقال له: فيفا خريم، إذا هو بعير قد أقبلت من ناحية المدينة، في أوائلها محامل فيها نسوة وكثير متلثم بعمامة له وفي النسوة عزة فلما نظرت إليه عرفته وأنكرها، فقالت لقائد قطارها: إذا دنا منك الراكب فاحبس. فلما دنا كثير حبس القائد القطار، فابتدرته عزة فقالت من الرجل؟ قال: من الناس. قالت: أقسمت. قال: كثير. قالت: فأين تريد في هذه الفازة؟ قال: ذكرت عزة وأنا

بصر، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التى ترين. قالت: فلو أن عزة لقيتك فأمرتك بالبكاء، أكنت تبكى؟ قال: نعم. فنزعت عزة اللثام عن وجهها وقالت: أنا عزة، فإن كنت صادقًا فافعل ما قلت. فأفحم. فقالت للقائد: قد قطارك. فقاده. وبقى كثير مكانه لا يحير ولا ينطق حتى توارت. فلما فقدها سالت دموعه وأنشأ يقول: وقضين ما قضين ثم تركننى.... الأبيات».

وواضح أن هذه القصة موضوعة لتفسير تلك الأبيات، وإلا فانظر إلى تلك المصادفة العجيبة التى تجمع بين كثير وعزة فى التيه! وإلى هذا الطلب الغريب المضحك الذى طلبته عزة من كثير، وماذا تجد فى بكاء كثير؟! وإلى بلاهة كثير الذى لبط مكانه وترك حبيبته تذوب كما ذاب السديف المسرهد وهو الذى سافر من مصر لأجلها! وإلى تلك السذاجة التى تبدو فى خيال القاص الشعبى فكأن مصر ضاحية من ضواحى المدينة، يتذكر الشخص أن له هوى بالمدينة فيقوم إلى بغلته ويسرجها ويسرع نحو المدينة على حاله ولم يعلم به أحد..!!

(ب) أنشد جميل هذه الأبيات:

أبثين إنك قد ملكت فاسجحى ... وخذى بحظك من كريم واصل

فلرب عارضة علينا وصلها ... بالجد، تخلطه بقول الهازل

فأجبتها بالقول بعد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى

لو كان فى حبى كقدر قُلامة فضلا، وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها، فهل لك فى اجتناب الباطل

وأبياتًا أخرى ذكرها أبو الفرج يتحدث فيها جميل عن لوم اللائمين وتقريع النسوة له، وأبياتًا يتحدث فيها عن وعد بثينة إياه وعدم وفائها بهذا الوعد.

فيجمع القاص هذه الأبيات وما فيها من إشارات وينشئ حولها قصة ملخصها أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا فى بعض المواقع، فأتى لوعدها. وجاء أعرابى يستضيف القوم فأنزلوه وقروه، فقال لهم: قد رأيت فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متوارين فى الشجر. وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده. فلما أسفر له الصبح انصرف كئيباً سيئ الظن بها ورجع إلى أهله، فجعل نساء الحى يقرعنه بذلك ويقلن له: إنما حصلت منها على الباطل وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها، فقال فى ذلك الأبيات السابقة.

ولعلكم معى فى أن هذه القصة قد وضعت لوصل الأبيات بعضها ببعض، وأن واضعها كان طيب القلب، إذ عز عليه أن ترمى بثينة بعدم الوفاء، ومن صفات العاشقة فى هذه القصص أن تكون وفية لحبيبها، فاختلق القاص لها تلك العقبة التى حالت بينها وبين حبيبها، وبذلك بدت لنا بثينة نقية بريئة وفية بوعدها. ولكن القاص لم يكن موفقًا فى بعض المواقف.. فما لزوم أن يستدعى جيل

شخصين معه لموعد يجب فيه أن يخلو بمعشوقته؟ ولماذا وقف قوم بثينة مكتوفى الأيدى وقد عرفوا أن جميلا قريب منهم وأن السلطان قد أهدر لهم دمه؟! وكيف عرف نساء الحى هذه الحادثة؟! وهل العربيات بتلك الصفاقة فيلحين جميلا فى هواه ويعرضن أنفسهن عليه بديلا عن بثينة الغادرة؟! أسئلة لم يوفق الخيال الشعبى فى الإجابة عنها.

٢ - قصص للتسلية:

أظلت الحضارة العرب بعد الإسلام، فتبعها ألوان من الترف واللذات وكثر الظرفاء والمضحكون. ثم قامت القصة بدورها فى التسلية فى مجتمع حضارى.

يجتمع قوم يتنزهون بالعقيق ومعهم ابن عائشة، وكان عنيدًا لا يغنى إذا طلب منه ذلك، فأخذوا يتحدثون بأحاديث كثيرة وجميلة وغيرهما عسى أن يهيجوه فيغنى، ولكنه لم يفعل. ثم قص يونس الكاتب قصة غرام هيجته وجعلته يغنى مما أمتع الناس وجعلهم يقضون يومهم فى فرح وسرور. ولنترك يونس الكاتب يروى لنا هذا الحديث: «كنا يومًا متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من قريش، فبينا نحن على حالنا إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بنى ليث وهو متوكئ على يده فلما رأى جماعتنا وسمعنى أغنى جاءنا فسلم وجلس إلينا وتحدث معنا، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه إذا سئل

أن يغنى فأقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء، يستجرون بذلك أن يطرب فيغنى فلم يجدوا عنده ما أرادوا. فقلت لهم: لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل الأحاديث، فإن شئتم حدثتكم إياه. قالوا: هات. قلت: حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة، فإذا صبيان يتغاطسون فى غدير. وإذا شاب جميل منهوك الجسم عليه أثر العلة والنحول فى جسمه بين وهو جالس ينظر إليهم، فسلمت عليه فرد علىّ السلام وقال: من أين وضع الراكب؟ قلت: من الحمى. قال: ومتى عهدك به؟ قلت: رائحاً. قال: وأين كان بيتك؟ قلت: بيتى فلان. فقال: أوه. وألقى بنفسه على ظهره وتنفس الصعداء. فقلت: إنه قد خرق حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول:

سقى بلداً أمست سليمى تحله ... من المزن ما يَرْوى به ويُسيم
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحل به شخص علىّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدىّ، وإن شط المزار، نعيم
ومن لامنى فيه حميم وصاحب ... فرد بغيظ صاحب وحميم

ثم سكن كالمغشى عليه. فصحت بالنسوة فأتين بالماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصب القريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تزين بالخشوع
ولى عين أضر بها التفانى ... إلى الأجراع مطلقة الدموع
إلى الخلوات يأنس فيك قلبى ... كما أنس الغريب إلى الجميع

فقلت له : ألا أنزل فأساعدك، أو أكر عودى على بدئ إلى الحمى، إن كانت لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جزيت خيراً وصحبتك السلامة امض لطيتك، فلو أن علمت أنك تغنى عنى شيئًا لكنت موضعًا للرغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة، ولكنك أدركتنى فى صُبابة من حياتى يسيرة. فانصرفت وأنا لا أراه يمسى ليلته إلا ميتاً. فقال القوم : ما أعجب هذا الحديث ! واندفع ابن عائشة يغنى فى الشعرين جميعاً وطرب وشرب بقية يومه، ولم يزل مغنياً إلى أن انصرفنا »[1].

وواضح أن هذه القصة موضوعة للتسلية، فقوم يتنزهون بالعقيق، فيتحدثون بأحاديث جميل وكثير وغيرهما من العشاق الذين يحلو ذكرهم فى هذه الأوقات ويقص يونس الكاتب حديثاً عن أعرابى يأكل كل الأحاديث، فيهيج ابن عائشة، ويغنى بالشعر الذى ورد فى القصة، ويطربون ويشربون.

فالقصص فى هذا المجتمع الحضارى كانت تقوم بدورها وتنافس الشعر والغناء فى مجالس السرور والأنس.

ولم تقف قصص العشق عند حد اتخاذها وسيلة لتفسير المواقف الغرامية التى جاءت فى شعر الشعراء، أو عند قيامها بدور وظيفى فى مجتمع حضارى بل استغلت لأغراض أخرى. فاستخدمت لأغراض شخصية، ولمرام شعوبية، ولأهداف دينية.

---

(١) انظر الأمالى ١/٣٧.

٣ - قصص الدعاية :

عرف كثير من الأذكياء قيمة القصة فى الدعاية لفنهم والترويج لشعرهم، وخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة، وتذيع وسط الشعب فاستغلوا القصص، وحملوها ما يريدون أن يحملوا، وجعلوها تنتقل وسط الناس، لاهجة باسمهم، مذكرة بهم.

(ا) قال حماد الراوية :

« أتيت مكة فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك. إنه كان لى خليل من عذرة، وكان مستهترًا بحديث النساء. يشبب بهن وينشد فيهن، على أنه لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة. وكان يوافى الموسم كل سنة. فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار، وتوقفت له السمار حتى يقدم، وأنه راث عنى ذات سنة خبره، وقدم وفد عذرة فأتيت القوم أنشد عن صاحبى، فإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال عن أبى المسهر تسأل؟ قلت : عنه نشدت وإياه أردت، قال : هيهات أصبح والله أبو المسهر لا مسئولا منه فيهمل ولا مرجوًا فيعلل، أصبح والله كما قال :

لعمرك ما جبى لأسماء تاركى صحيحًا، ولا أقضى به فأموت

قلت: وما الذى به؟ قال: به مثل الذى بك من طول انهماكما فى الضلال وجركما أذيال الخسار، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار. قلت: من أنت منه يابن أخى؟ قال: أنا أخوه. قلت: والله ما منعك من أن تركب طريق أخيك التى ركبها، وتسلك مسلكه الذى سلك، إلا أنك وأخاك كالوشى والبجاد لا يرقعك ولا ترقعه. ثم انطلقت وأنا أقول:

أرائحة حجاج عذرة روحة ... ولما يرح فى القدم جعد بن مهجع
خليلين نشكو ما نلاقى من الهوى ... فتى ماأقل يسمع، وإن قال أسمع
فلا يبعدنك الله خلا فإننى ... سألقى، كما لاقيت فى الحب مصرعى

فلما حججت وقفت فى الموضع الذى كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين عنق ناقتى وناقته. ثم اعتنقنى وجعل يبكى، فقلت: ما الذى دهاك وما غالك؟ فقال: برح العذل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

لئن كانت عديلة ذات بث ... لقد علمت بأن الحب داء
ألم تنظر إلى تغيير جسمى ... وأنى لا يزايلنى البكاء
وإن لو تكلفت الذى بى ... لعق الكلم وانكشف الغطاء
إذا العذرى مات بحتف أنف ... فذاك العبد يبكيه الرشاء

فقلت: يا أبا مسهر، إنها ساعة عظيمة. وإنك فى جمع من أقطار الارض ولو دعوت كنت قمينًا أن تظفر بحاجتك وأن تنصر على

عدوك. قال: فجعل يدعو حتى تللت الشمس للغروب وهم الناس أن يفيضوا وسمعته يهمهم، فاصغت له مستمعًا وهو يقول:

يـارب كل غـدوة وروحـــه من محرم يشكو الضحى ولـوحه

أنت حسيب الخطب يـوم الـدوحه

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله، إن امرؤ ذو مال كثير من نعم وشاء، وإن خشيت على مالى التلف، فأتيت أخوالى من كلب فأوسعوا لى عن صدر المجلس وسقون بجمة البئر فكانوا خير أخوال حتى هممت بمواقعة إبل لى بماء يقال له الخرزات فركبت وتعلقت معى شرابًا كان قد أهداه إلى بعض الكلبيين وانطلقت حتى إذا كنت بين الحى ومرعى الغنم رفعت لى دوحة عظيمة. فقلت: لو نزلت تحت هذه الشجرة وتروحت مبرداً، فنزلت، فشددت فرسى بغصن من أغصانها ثم جلست تحتها، فإذا أنا بغبار قد سطع. فتبينت فبدت لى شخوص ثلاثة. فإذا رجل يطرد مسحلة وأتانا. فلما قرب منى إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء، وإذا هو تنال فروع شعره كتفيه. فقلت فى نفسى: غلام حديث عهد بعرس فأعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه وأخذ ثوب امرأته، فما لبث أن لحق بالمسحل، فصرعه ثم ثنى طعنه للأتان فصرعها، ثم أقبل وهو يقول:

لـطعنهم سـلكى ومخلـــوجة كرّك الـلأمين على نـابل

قال: فقلت: إنك قد تعبت وأتعبت، فلو نزلت، فثنى رجله

فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، ثم أقبل حتى جلس قريباً مني فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول الشاعر:

وإن حديثاً منك لو تبتلينه جنى النحل، في ألبان عوذ مطافل

قال: فبينا هو كذلك، إذ حك بالسوط على ثنيته، فرأيت والله يابن ربيعة ظل السوط بينهما، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط فقلت: مه. فقال: وله؟ قلت: فإن أخاف أن تكسرهما فإنهما رقيقتان. قال: هما عذبتان، ثم رفع عقيرته فجعل يغني:

إذا قبل الإنسان آخر يشتهي ثناياه لم يأثم، وكان له أجرا
فإن زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله بمنه بها الوزرا

ثم قال لي: ما هذا الذي تعلقت في سرجك؟ قلت: شراب أهداه إلي بعض أهلك، فهل لك فيه؟ قال: وما أكرهه. فأتيته به فوضعه بيني وبينه فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولداً أو ذعرها قانص فعلم أين نظري فرفع عقيرته يغني:

إن العيون التي في طرفها مرض قتلننا، ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال وقع رجل منا باليمامة وأنشدنيه. ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسي، فرجعت وقد جر العمامة عن رأسه وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش، فقلت: سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك! قال: كيف قلت ذلك؟

قلت: مما راعنى من نورك وبهرنى من جمالك. قال: وما الذى يروعك من زرق الدواب وحبيس التراب؟! ثم لا تدرى أينعم بعد ذلك أم يبأس؟ ثم قام إلى فرسه فلما أقبل برقت لى بارقة الدرع، فإذا ثدى كأنه حق. قلت: نشدتك الله، امرأة؟ قال: إى والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل. قلت: والله أنا كذلك. قال فجلست تحدثنى، ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكراً، واستحسنت والله يابن أبى ربيعة الغدر وزين فى عينى، ثم إن الله عز وجل عصمنى منه، ثم جلست منها حجرة، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها برأسها وأخذت الرمح وجالت فى متن فرسها. فقلت: أما تزودينى منك زاداً، فأعطتنى شباتها فشممت منها كالنبات الممطور. ثم قلت: أين الموعد؟ فقالت: إن لى إخوة شرسين وأبا غيوراً، والله لأن أسرك أحب إلى من أن أضرك، قال: ثم مضت، فكان هذا آخر العهد بها إلى يومى هذا. فهى والله التى بلغت بى ما تراه من هذا المبلغ، وأحلتنى هذا المحل. قال: فقلت: وأنت والله - يا أبا مسهر - ما استحسن الغدر إلا بك. فإذا قد اخضلت لحيته بدموعه. قال: قلت: والله ما قلت لك هذا إلا مازحاً. ودخلتنى له رقة. فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى وشد على ناقته وحملت غلامًا لى على بعير، وحملت عليه قبة أدم خضراء كانت لأبى ربيعة وأخذت معى ألف دينار ومطرف خز. ثم خرجت حتى أتينا كلباً، فإذا الشيخ فى نادى قومه، فأتيته فسلمت عليه.

فقال: وعليك السلام، من أنت؟ قلت: عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى. قال: المعروف غير المجهول، فما الذى جاء بك؟ فقلت: جئت خاطباً. قال: أنت الكفء لا يرغب عن حسبه والرجل لا يرد عن حاجته. قال: قلت: إن لم آتك فى نفسى وإن كنت موضع الرغبة، ولكن أتيتكم لابن أختكم العذرى. قال: والله إنه لكفء الحسب كريم المنصب. غير أن بنات لم يقمن إلا فى هذا الحى من قريش. قال: فعرف الجزع من ذلك فى وجهى. فقال: أما إنى أصنع بك شيئاً لم أصنعه بغيرك أخيرها ما اختارت. قال: قلت: له: والله ما أنصفتنى. قال: وكيف ذلك؟ قال: كنت تختار لغيرى ووليت الخيار لى غيرك، فأومأ لى صاحبى أن دعه يخيرها. قلت: خيرها.. فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا، فارتئى رأيك. قال: فأرسلت إليه: ما كنت لأستبد برأى دون القرشى فخيارى ما اختار. قال: قد صيرت الأمر إليك. فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه وقلت: قد زوجها الجعد بن مهجع وأصدقتها الألف دينار، وجعلت تكرمتها العبد والقبة وكوت الشيخ المطرف، فقبله وسر به وسألته أن يبتنى بها من ليلته. فأجابنى إلى ذلك، وضربت القبة وسط الحى، وأهديت إليه ليلا، وبت عند الشيخ خير مبيت، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة فخرج إلىّ وقد تبين الجذل فى وجهه. قال: فقلت: له كيف أنت من بعدى؟ وكيف هى بعدك؟ فقال: أبدت كثيراً مما أخفت يوم رأيتها. فقلت: ما حملك على

ذلك ؟ فأنشأ يقول :

كتمت الهوى، إن رأيتك جازعاً ... فقلت : فتى بعض الصديق يريد
فإن تطرحنى، أو تقول فتية ... يضر بها برح الهوى، فتعود
فوربت عما بى وفى الكبد والحشا ... من الوجد برح فاعلمن شديد

قال : فقلت : أقم على أهلك، بارك الله فيك. وانطلقت إلى أهلى.

ذكرت لك هذه القصة كاملة[1]، لأنها ثرية، فيها الكثير من صفات القصص العربى، وهى نموذج حى لقصص العشق التى ذاعت وشاعت بين جماهير العرب.

ولست أدرى : هل اخترع هذه القصة حماد الراوية الذى كان يكذب ويتزيد فى رواياته، أو أنها من وحى خيال ابن أبى ربيعة ؟! لست أدرى، لأن القصة تشف عن مزاج كلا الرجلين، فقد كان كل منهما مستهتراً ماديا. والمخترع هنا يأبى إلا أن يلصوث قصص العذريين بالخمر والسكر والغناء والتمايل تحت الدوحة. ولم يوفق القاص فى رسم هذا الجو الذى يتنافى مع البيئة البدوية والنساء البدويات فهل فى البادية امرأة لها أب غيور وإخوة شرسون، ثم تخرج للصيد وتفعل فعل الرجل الفارس، ثم تلتقى بأجنبى فتجلس معه تحت ظل شجرة وتطارحه وتنشده الشعر الغزلى، ثم تشرب معه

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٥٠.

الخمر وتميل سكراً . . . إلخ. لاشك في أن مخترع هذه القصة رجل عاش في الحضر وشاهد الترف، فتصور أهل البادية وكأنه يتصور أهل الحضر.

ومن مقدمة القصة يبدو لنا أن القاص قد اخترعها للتسلية وإزجاء الفراغ، فقد اجتمع الناس في حلقة وأخذوا يتذاكرون أخبار العذريين وعشقهم فقص عليهم القاص تلك الحكاية، وقد أضاف ابن عبد ربه حين وضعها تحت عنوان « المضحكات » وذلك في الجزء الثالث من العقد الفريد.

ولكن ابن أبي ربيعة ينتهز هذه الفرصة فيدس في ثنايا القصة حديثاً عن نفسه وافتخاراً بأبيه وتغنياً بجوده وكرمه ودفاعاً عن مسلكه ومذهبه، فهو شهم كريم، يسمع عن مأساة صاحبه فيخرج معه ويشد على ناقته ويحمل معه قبة أبي ربيعة، ويأخذ معه ألف دينار ومطرف خز. ويخرج الرجل فيستقبله استقبال المعروفين غير المجهولين، ويرحب به، ويثني على حسبه وعلى شخصه وتختاره الفتاة وكيلا لها، فينهي الموضوع كما يجب، ويرجع إلى أهله، مفتخرًا بنفسه ويقول - كما ورد في العقد الفريد - :

كفيت الفتى العذرى ماكان نابه ومثلي لأثقال النوائب يحمل
أما استحسنت مني المكارم والعلا إذا صرحت أني أقول وأفعل

فهذا الفخر بابن أبي ربيعة وبحسبه، وتلك الخاتمة التي تنتهي بهذه الأبيات - يرجحان أن القصة من صنع عمر.

ويبدو أن عمر كان ذكيا، فقد أكثر من الدعاية لفنه، والترويج

لشعره مرة برشوة المغنين والمغنيات حتى ينشدوا شعره كما جاء في الأغاني ومرة ثانية بإشاعة هذا النوع من القصص التي أكثر من اختلاقها وترويجها.

وهذا مثال آخر من قصصه:

(ب) قال عمر بن أبي ربيعة:

بينا أنا خارج محرماً، إذ أتتني جارية كأنها دمية في صفاء اللجين، في ثوب قصب كقضيب على كثيب، فسلمت علي وقالت: أنت عمر بن أبي ربيعة، فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا والله ذاك. قالت: هل لك أن أريك أحسن الناس وجها؟ قلت: ومن لي بذلك؟ قالت: أنا والله لك بذلك على شريطة. قلت: وما هي؟ قالت: أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا. قلت: لك ذلك. قال: فاستخرجت معجراً من قصب عجرتني به وقادتني حتى أتت بي مضرباً. فلما توسطته فتحت العجارة عن عيني، فإذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بفرش كوفي، وفي المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر، عليها تماثيل ذهب. ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسناً وجمالا. فقامت كالخجلة وقعدت قبالتي وسلمت علي. فخيل إلي أن الشمس تطلع في جبينها وتغرب في شقائق خدها. قالت: أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك يامنتهى الجمال. قالت: أنت القائل:

بينا ينعتنـــى أبصرنـــى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : أما تعرفن ذا قالت الوسطى : بلى هذا عمر
قالت الصغرى - وقد تيمتها - قد عرفناه، وهل يخفى القمر

قلت : أنا والله قاتلها يا سيدتى. قالت : ومن هؤلاء؟ قلت : والله يا سيدتى ما هو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء. قالت : يا عدو الله، يا فاضح الحرائر، أنت قد فشا شعرك فى الحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن فى جارية بعينها، يا جوارى أخرجنه. فخرجت الوصائف فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى، وقادتنى إلى مضرب، فبت ليلة كانت أطول من سنة. فلما أصبحت بقيت هائماً، لا أعقل ما أصنع، فمازلت أرقب الوقت. فلما كان وقت المساء، جاءتنى الجارية فسلمت علىّ وقالت : ياعمر، هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت : إى والله. قالت : فتحب أن أريكه ثانية؟ قلت : إذا تكرمت فتكونين أعظم الناس علىّ منة، فقالت : على الرحبة. فاستخرجت المعجر، فعجرتنى وقادتنى فلما توسطت المضرب، فتحت العصابة عن وجهى، فإذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدنر ببياض مفروش بفرش أرمنى، فقعدت على نمرقة من تلك النمارق، فإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء ستر تتمايل من غير سكر. فقعدت كالخجلة، فسلمت على. قالت : أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت : أنا ذاك. قالت : أنت القائل :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى ... على الرمل فى ديمومة لم توسد
فقالت : على اسم الله أمرك طاعة ... وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فمازلت فى ليل طويل ملثماً ... لذيذ رضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وإن شئت فازدد
فلما ازددت منها واتشحت بمرطها ... وقلت لعينى : اسفحا الدمع من غد
فقامت تعثى بالرداء مكانها ... وتطلب شذراً من جمان مبدد

قلت : أنا قائلها. قالت فمن الناهدة الثديين؟ قلت : ياسيدتى، قد سبق فى الليلة الأولى. والله ما هو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء. قالت : ياعدو الله، أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن فى جارية بعينها، ياجوارى ادفعنه. فوثبت الجوارى فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية، فعجرتنى وقادتنى إلى مضرب، فبت فى ليلة كانت أطول من الليلة الأولى فلما أصبحت أمرت بخلوق فضرب لى وبقيت هائماً. فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية فسلمت علىّ وقالت : يا عمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت : إى والله. قالت : فتحبّ أن أريكه الثالثة؟ قلت : إذاً تكونين أعظم الناس علىّ منة. قالت : على الشريطة. قلت : نعم. فاستخرجت المعجر وعجرتنى به، وقادتنى حتى أتت بى المضرب. فلما توسطته فتحت العصابة عن عينى. فإذا أنا فى مضرب ديباج أخضر مدنر بحمرة مفروش بخز أحمر. وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور

الجنان فسلمت علىّ. وقالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك. قالت: أنت القائل:

لعب الغراب بين ذات الدملج ... ليت الغراب بينهما لم يشجج
مازلت أتبعهم وأتبع عيسهم ... حتى دفعت إلى ربيبة هودج
قالت: وعيش أخى وحرمة والدى ... لأنبهن الحى إن لم تخرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
فتناولت كفى لتعرف مسها ... بمخضب الأطراف غير مشنج

قلت: أنا قاتلها. قالت ياعدو الله أنت الذى فضحتها ونفسك وجهى من وجهك حرام إن عدت إلى، ياجوارى أخرجنه. فوثب إلى الوصائف وأخرجنى، ودفعنى إلى الجارية فعجرتنى وقادتنى. وقد كنت عند خروجى من مضربها ضربت يدى بالخلوق وأسدلت عليها ردائى فلما صرت إلى باب مضربها أخرجت يدى ووضعتها على جانب المضرب وضعاً بيناً، فلما أصبحت صحت بغلمانى وعبيدى، ولى ألف عبد: من أتانى بخبر المضرب الذى ضرب فيه بكذا وكذا، فهو حر لوجه الله. فلما كان فى وقت المساء أتتنى وليدة سوداء فقالت: قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان. فأعتقتها وأمرت لها بمائتى دينار. وأمرت بمضرب فقلع وضرب بحذاء مضربها. وكتب بالخبر إلى عبد الملك بن مروان. فكتب إليها بالرحيل. فركبت هودجها وركبت فرسى فزاحمتها فى بعض الطريق فأشرفت علىّ من هودجها فقالت: إليك عنى أيها الرجل. قلت: خاتم أو قيص

أذكرك به. فقالت لبعض جواريها : ألق إليه قميصاً من قمصي. فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيك ما صوت الغواني ولا شرب التي هي كالفصوص
أردت برحلتي وأريد حظا ولا أكل الدجاج ولا الخبيص
قميص ما يفارقني حياتي أنيس في المقام وفي الشخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا في الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك في خاصته فدخل إليها ثم قال : يارملة. ألم أنهك أن تطرق بالبيت إلا ليلا يخفك الجواري ويخف الجواري الجدم ويخف الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبي ربيعة. قالت : والله وحياة أمير المؤمنين ما رآني ساعة قط. فخرج من عندها فبصر بمضرب فقال : لمن المضرب؟ قيل : لعمر بن أبي ربيعة. قال : علي به. فأتيته بلا رداء ولا حذاء، فدخلت عليه وسلمت عليه. فقال : ياعمر، ما حملك على الخروج من الحجاز من غير إذن؟ قلت : شوقاً إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلى رؤيتك فأطرق مليا ينكت في الأرض بيده. ثم رفع رأسه فقال : ياعمر، هل لك في واحدة؟ قلت : وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال : رملة أزوجكها. قلت : يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن؟ قال : إي ورب السماء. ثم قال : قد زوجتكها فادخل إليها من غير أن تعلم. فدخلت عليها فقالت : من أنت هبلتك أمك؟ قلت : أنا المعذب في الثلاث، فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول :

لعمرى، لقد نلت الذى أرتجى وأصبحت لا أخشى الذى كنت أحذر
فليس كمثلى اليوم كسرى وهرمز ولا الملك النعمان مثلى وقيصر
فلم أزل معها بأحسن عيشة وغبطة».

فهذه القصة المترفة قد أشاعها عمر لتمجيد شعره والدعاية لفنه. ولا يمكن أن تقبل كحقيقة تاريخية. ولأمر ما تكررت هذه العبارة من رملة: «أنت عمر بن أبى ربيعة فى قريش وشاعرها؟ قلت: أنا ذاك» وما الداعى لأن تنفوه رملة بهذه العبارة وهى فى معرض توبيخ عمر وتقريعه، وليست فى معرض مدحه والثناء عليه؟ ولأمر ما يقول عمر: «فصحت بغلمانى وعبيدى ولى ألف عبد».

والقصة تتفق مع مذهب عمر فى شعره، ففى شعره يتغزل فيه الفتيات ويطاردنه. وهنا تتعرض له رملة وتستدعيه إلى مضربها وتغرى به جواريها، حتى الزواج يتم بطريقة نرجسية فجائية، فيستدعيه عبد الملك ويعرض عليه أن يزوجه من رملة. وهذه النهاية السعيدة تتفق مع مزاج فتى قريش فقد عاش معها بأحسن عيشة وغبطة. ولا ينسى عمر أن يختم القصة - كما ختم القصة السابقة - بأبيات يجعل فيها نفسه مثل كسرى وهرمز والنعمان وقيصر.

(د) قال رجل من أهل تيماء:

كنت يوماً جالساً مع جبل وهو يحدثنى وأحدثه، إذ ثار وتربد وجهه فأنكرته ورأيت منه غير ما كنت أرى. ووثب سافراً مقشعر

الشعر متغير اللون حتى أتى بناقة له قريبة من الأرض مجتمعة موثقة الخلق. فشد عليها رحله، ثم أتى بمحلب فيه لبن فشربه، ثم ثنى فشربت حتى رويت. ثم قال لى: اشدد أداة رحلك واشرب واسق جملك، فإنى ذاهب بك إلى بعض مذاهبى، ففعلت. فجال فى ظهر ناقته وركبت ناقتى. فسرنا بياض يومنا وسواد ليلتنا. ثم أصبحنا فسرنا يومنا كله. لا والله مانزلنا إلا للصلاة. فلما كان فى اليوم الثالث وقفنا إلى نسوة قال إليهن. ووجدنا الرجال خلوفاً. وإذا قدر لبن ثم وقد جهدت جوعاً وعطشاً فلما رأيت القدر اقتحمت من بعيرى وتركته جانبى، ثم أدخلت رأسى فى القدر ما يثنينى حرها حتى رويت، فذهبت أخرج رأسى من القدر فضاقت علىّ. وإذا هى على رأسى فلنسوة فضحكن منى وغسلن ما أصابنى. وأتى جميل بقرى. فوالله ما التفت إليه، فبينا هو يحدثهن إذا رواعى الإبل، وكان السلطان قد أحل لهم دمه إن وجدوه فى بلادهم وجاء الناس فقالوا له: ويحك! انج وتقدم، فوالله ما أكبرهم كل الإكبار، وغشيه الرجال فجعلوا يرمونه ويطردونه، فإذا قربوا منه قاتلهم ورمى فيهم، وهام بى جملى فقال لى: بسر لنفسك مركباً خلق فأردفنى خلفه لا والله ما انكسر ولا انحل عن فرصته حتى رجع إلى أهله».

وهدف هذه القصة هو رسم شخصية بطولية، وجرت على عادة القدماء فى إظهار البطل فى صورة مبالغ فيها، فهو شجاع قوى لا تهمه الجماعة ولا المصاعب، بينا تكون الشخصيات الأخرى ضئيلة

القيمة ذات دور ثانوى. فجميل يثور ويريد وجهه ويقشعر شعره ويتغير لونه، ثم يسرع إلى جمله ويسحب معه تابعه المهرج (الكوميدى) الذى يطيعه طاعة عمياء ويسير جميل فى طريقه لا يحس جوعاً ولا يشعر بظمأ برغم تلك المسافة الطويلة التى يقطعها سواد ليله وبياض نهاره، حتى إذا غشيه الرجال لم يكبرهم وجعل يقاتلهم ويرمى فيهم، ثم يلق بتابعه الكوميدى وراءه، ويسرع بناقته حتى يرجع إلى أهله.

(د) وكان (بعضهم) يستغل قصص الحب فى الدفاع عن فكرة يؤمن بها، ويعتقد أنها لصالحه، ففى ذات ليلة حاول عبد الملك بن مروان أن يعرض بعبد الله بن جعفر وأن يقلل من قيمة الغناء الذى شاع بين الحجازيين فقال: «قبح الله الغناء! ما أوضعه للمروءة وأجرحه للعرض وأهدمه للشرف وأذهبه للبهاء!». فانبرى ابن جعفر للدفاع عن مذهب الحجازيين واستغل القصص لإقناع عبد الملك، فقص عليه قصة الفتى الذى كان يهوى جارية مغنية، وكان يتسمع كل ليلة إلى غنائها حتى الفجر، فقال: «اشتريت جارية باثنى عشر ألف درهم مطبوعة، فكان بديع وطريف يأتيانها فيطرحان عليها أغانيهما فعلقت منهما حتى غلبت عليهما... فبينا هى عندى على تلك الحال، إذ ذكرت لى عجوز من عجائز أن فتى من أهل المدينة يسمع غناءها ثم ينصرف فراعيت مجيئه، فإذا الفتى قد أقبل مقنع الرأس، فأشرفت عليه وقد قعد مستخفياً فلم أدع

بها تلك الليلة وجلست أتأمل موضعه، فبات مكانه الذى هو فيه، فلما انشق الفجر اطلعت عليه. فإذا هو فى موضعه فدعوت قيمة الجوارى، فقلت لها: انطلق الساعة فزيني هذه الجارية واعجلي بها إلى. فلما جاءت بها نزلت وفتحت الباب وحركته، فانتبه مذعوراً، فقلت له: لا بأس عليك خذ بيد هذه الجارية، فهى لك وإن همت ببيعها فردها إلى فدهش وأخذه الخبل ولبط به، فدنوت من أذنه فقلت: ويحك قد أظفرك الله ببغيتك فقم فانطلق بها إلى منزلك، فإذا الفتى قد فارق الدنيا فلم أر شيئا قط أعجب منه.

ومن حق عبد الملك ألا يصدق بهذه الحكاية وأن يقسم أنه لا يصدقها لولا أن عبد الله قد عاينها[11]، ومن حقنا نحن ألا نصدق به وأن نزعم أنها موضوعة لبيان قيمة الغناء والدفاع عن المذهب الذى شاع بين الحجازيين.

٤ - قصص ذات أغراض تعصبية:

ولم تستغل قصص الحب استغلالا شخصيا فحسب، بل استغلت لأغراض تعصبية أيضاً.

فقد عرف العرب فى تاريخهم صراعاً بين السادة والعبيد. وثورات بين بعضهم والبعض الآخر، فاستخدم كل فريق ما تيسر له من الأسلحة فكانوا ينتحلون الشعر ويختلقون الأحاديث، تدعم

(١١) انظر: العقد الفريد ٣/١٩٩ (المطبعة الشرقية).

لنزعاتهم وتأييداً لميولهم.

ونال القصص حظها من الانتحال والاختلاق.

(أ) كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين، وكان لها من قلبه موضع، فقدم عليه من ناحية مصر جوهر له قدر وقيمة، فدعا خصيا له وقال: اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها: أتيت به الساعة فجئت به إليك فأتاها فوجد عندها وصلح اليمن، وكان من أجمل العرب وأحسنهم وجهاً. فعشقته أم البنين فأدخلته عليها، فكان يكون عندها، فإذا أحست بدخول يزيد أدخلته في صندوق من صناديقها. فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته إلى الصندوق فرآه الغلام ورأى الصندوق الذي فيه فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها رسالة يزيد ثم قال: يا سيدتي هبي لي منه لؤلؤة. قالت: لا، ولا كرامة. فغضب وجاء إلى مولاه فقال: يا أمير المؤمنين إن دخلت عليها وعندها رجل، فلما رأتني أدخلته صندوقًا وهو في الصندوق الذي صفته كذا وكذا.. فقال يزيد: كذبت ياعدو الله، جئوا عنقه.. ثم قام ولبس نعله ودخل على أم البنين وهي تمتشط في خزانتها، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصفه الخادم وقال: ياأم البنين ما أحب إليك هذا البيت! قالت: يا أمير المؤمنين أدخله لحاجتي، وفيه خزانتي لما أردت من شيء أخذته من قريب. قال: لها في هذه الصناديق التي أراها؟ قالت: حلي وأثاث. قال: فهبي لي منها صندوقاً. قالت: كلها يا أمير المؤمنين لك. قال: لا أريد إلا

واحداً. ولك على أن أعطيك زنته ذهباً وزنة ما فيه. قالت: فخذ ما شئت قال: هذا الذى تحتى. قالت لم ياأمير المؤمنين؟ عد عن هذا، وخذ غيره، فإن لى فيه شيئاً يقع بمحبتى. قال: ما اريد غيره. قالت: هو لك فأخذه ودعا الفراش وحمل الصندوق ومضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر ما فيه. ولما جنه الليل دعا غلاماً له أعجميا وقال له: استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل المصر. فجاءوا بهم فأمرهم فحفروا له حفيرة فى مجلسه. حتى بلغوا الماء ثم قال: قدموا لى الصندوق. فألقى فى الحفيرة ثم وضع فمه على شفيره فقال: يا هذا قد بلغنا عنك خبر، فإن يك حقا فقد قطعنا أثره، وإن يك باطلا فإنما دفنا خشباً. ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى. فلم ير الوضاح حتى الساعة. فلا والله ما بان لها فى وجهه ولا فى خلائقه شىء حتى فرق الموت بينهما.

وأعتقد أن هذه القصة ليس لها صدق واقعى، فهى تناقض خلق العربيات القائم على العفة أو التستر فى أمثال هذه الموضوعات. وتناقى خلق العرب القائم على الغيرة والأنفة والاندفاع فيما يمس الشرف. وانظر إلى تريث يزيد حين دخل عليها وهو يساومها على أخذ الصندوق ويبذل لها زنته وزنة ما فيه ذهباً. وانظر إلى الحوار الهادئ الذى دار بينهما. وإلى الصبر العجيب الذى جعله يضع الصندوق ولا يفتحه حتى يجنه الليل. ثم إلى هذا الوداع الهادئ الرزين الذى ودع به الصندوق حين ألقاه فى الحفرة.

اللهم إن هذا ليس من خلق العرب، بل هذا شيء وضع على العرب.

واللهم إن واضع هذا ليس من العرب أيضاً، وإلا كان قد تنبه لأهم شيء عند العرب وهو اضطرابه الشديد وانفعاله البين فيما يمس العرض ويخدش الشرف، فمن وضع هذا لم يوفق في التزوير والتمويه، فقد وصف العرب هنا وكأنه يصف رجلا أجنبيا.

ولهذا أميل إلى أن هذه القصة قد وضعت بسبب الشعوبية، فقد أرادوا أن يشهروا بنساء هذا الخليفة الأموي، فاختلقوا هذه القصة التي تنتقص منه ومن نسائه، فهم قد عرفوا أن ابن عبد الملك قد قتل وضاحاً هذا لأنه شبب بامرأته وبأخته، وهم قد عرفوا أن وضاحاً هذا كان رائع الحسن وأنه كان يبرقع وجهه خوف الفتنة بحسنه وخوفاً من العين وحذراً على نفسه من النساء، فلا أقل من أن يبنى القصاص على هذه العناصر قصة غرامية تحط من قدر أم البنين، ولا أقل من أن يختاروا لها شخصية قيل إنها من أولاد الفرس وقيل: بل إنه من حمير مات أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه رجلا من أولاد الفرس، وشب وضاح في حجر زوج أمه. ولما كبر جاء أهل بيته من حمير يطلبونه فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه، فحكم به الحاكم للحميريين، ومسح على رأسه وأعجبه جماله وقال له: اذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذي يزن، يعني الفرس الذين قدم بهم ابن ذي يزن لنصرته.

وجد الشعوبية إذن عناصر قصة، فبنوا عليها ما يخدم فكرتهم وينصر قضيتهم، ونسجوا قصة حول غرام أم البنين، لرجل جميل من الفرس أو تربى فى حجر الفرس.

وليست أدعى أن هذا الرأى لى فقد ذكر أبوالفرج فى الجزء السادس من كتابه الأغانى أن هذه الحكاية قد وضعها بعض الشعوبية لما تلاحى هو وبعض ولد الوليد زوج أم البنين، وأن الحق هو الرواية الأولى التى ترى أن الوليد قد قتله لأنه شبب بزوجه أم البنين.

من المعقول إذن أن أقبل أن عربيا قد قتل رجلا لأنه شبب بامرأته وبنسائه فأمثال هذا كثير فى التاريخ العربى وهو يوائم مزاج العربى. ولكن ليس من المعقول أن أقبل هدوء العربى وتربيته ورزانته أمام ما يمس عرضه وشرفه.

(ب) ولم تقف القصة عند حد الاستغلال الشعوبى، بل استغلها العرب فى النزاع الذى دار بينهم.

فقد كان فى العصر الأموى نزاع بين الأنصار أصحاب الأمر والنهى أيام النبى ومن بعده والذين اتخذوا من المدينة المنورة مركزاً للدعوة. وبين الأمويين أصحاب الأمر الجديد والذين اتخذوا من دمشق عاصمة للحكم واستخدم كل فريق ما تيسر له من أسلحة المعارك، وقد كان لقصص الحب نصيب فى هذه الزوبعة الطاحنة.

كان عبد الرحمن بن ثابت الأنصارى وعبد الرحمن بن الحكم

الأموى صديقين، ثم حدثت القطيعة والخصومة بينهما حتى تراميا بالأشعار.

ويختلف كل فريق فى سبب هذه المهاجاة، ثم يروح يؤلف القصص بما يرضى هواه ويشفى حاجته.

أما الأنصار فيزعمون أن عبد الرحمن بن حسان الأنصارى كان يحب امرأة صاحبه الأموى وكان يختلف إليها، فبلغ ذلك زوجها فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسان ولكن هذه كانت عفيفة قوية الخلق، فأبيات زوجها الأنصارى، ثم اتفق الزوجان على حيلة يتشفيان بها من هذا الأموى وزوجه. فاحتال الأنصارى حتى حمل امرأة صاحبه على أن تزوره فى بيته وأخفاها فى إحدى الحجر، واحتالت زوجه حتى حملت الأموى على أن يزورها. فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها الأنصارى فأرادت أن تخفيه فأدخلته إحدى الحجر فإذا هو يرى امرأته.

أما الأمويون فيروون هيكل الحكاية، ولكنهم يقلبون الأدوار فيها، فقد كانت زوج الأنصارى عاهرًا لا ترعى حرمة الزوجية وكانت ترسل الرسل إلى هذا الأموى تغريه بنفسها، ولكنه كان متين الخلق مراعياً لحرمة صديقه فلم يجبها.

٥ - قصص ذات أهداف دينية :

ولم تستغل قصص الحب للمنافع الشخصية أو النزعات الشعوبية

و الأهواء التعصبية فحسب، بل استخدمت أيضا للأهداف الدينية.

خرج أبو دهبل الجمحى يريد الغزو وكان رجلا جميلا صالحا، فلما جاء بجيرون جاءته امرأة فأعطته كتاباً وقالت له: اقرأ هذا فقرأه لها ثم ذهبت فدخلت قصراً ثم خرجت إليه فقالت له: لو بلغت معى إلى هذا القصر، فقرأت الكتاب على امرأة فيه كان لك أجران إن شاء الله فبلغ معها القصر. فلما دخل إذا فيه جوار كثيرة فأغلقن عليه باب القصر فإذا امرأة جميلة قد أتته، فدعته إلى نفسها فأبى، فأمرت به فحبس فى بيت من القصر. وأطعم وأسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت، ثم دعته إلى نفسها فقال: أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبداً، ولكن أتزوجك قالت: نعم. فتزوجها. وأمرت به فأحسن إليه حتى رجعت نفسه إليه فأقام معها زمناً طويلا لم تدعه يخرج من القصر حتى ينس منه أهله وولده وزوج أولاده بناته واقتسموا الميراث وأقامت زوجه تبكى ولم تقاسمهم ولا أخذت من ميراثه شيئاً. وجاءها الخطاب فأبت وأقامت على الحزن والبكاء عليه. فقال أبو دهبل لامرأته يوماً: إنك قد أثمت فى وفى ولدى، فأذن لى أن أخرج إليهم وأرجع إليك، فأخذت عليه أيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها وأعطته مالا كثيراً، فخرج من عندها بذلك المال حتى قدم إلى أهله فرأى زوجته وما صارت إليه من الحزن ونظر إلى ولده ممن اقتسم ماله وجاءوه فقال: ما بينى وبينكم عمل، أنتم ورثتموني وأنا حى فهو حظكم. والله لا يشرك زوجتى أحد فيما قدمت به وقال

لزوجه : شأنك بهذا المال كله فهو لك ولست أجهل ما كان من وفائك وأقام معها وقال فى الشامية :

صلح حيا الإله حيا ودوداً عند أصل القناة من جيرون
فبتلك اغترت بالشام، حتى ظن أهلى مرجات الظنون
وهى زهراء، مثل لؤلؤة الغو اص، ميزت من لؤلؤ مكنون
(إلى آخر الأبيات)

فلما جاء الأجل أراد الخروج إليها ففاجأه موتها فأقام»[1].

وواضح أن هذه القصة تحمل هدفاً تربويا دينيا وهو الحث على العفة والترغيب فيها. فأبو دهبل - كما فى القصة - رجل صالح وشاب جميل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين. ومازالت به وهو يتأبى حتى ضعف وكاد يموت، ثم تزوجها على كتاب الله وسنة رسوله.

والعناصر الدينية كثيرة فى هذه القصة، كعنصر الإثابة على الوفاء، والمكافأة على الصبر، فهذه الزوجة المخلصة تفى لزوجها الغائب وترفض الخطاب وتقيم على الحزن والبكاء، فيكافئها الله على هذا العمل الصالح برجوع زوجها يحمل مالا كثيرا يهبه لها وحدها. وعنصر الوفاء بالوعد، فهذا الرجل الصالح تأخذ عليه الشامية أيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها. فلما جاء الأجل تذكر هذا الرجل وعده. ولكن القصة تختلق موقفاً ترضى به الزوجة الوفية وفى الوقت

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٧٠.

نفسه يحافظ فيه الرجل الصالح على وعده، فقد تدخل سيف القضاء والقدر، فإذا هذه الشامية تموت فيقيم الرجل مع زوجه فى سرور وسعادة.

العنصر الدينى واضح فى هذه القصة، ولكن هل نستبيح لأنفسنا أن نفهم هدفاً خفيا يستتر وراء هذا وهو أن أهل الحجاز - وقد كانت بينهم وبين أهل الشام خصومات - يعقدون فى هذه القصة مقارنة خفية بين امرأة حجازية تحافظ على عهد زوجها وتحزن لفراقه ولا تنشط لماله ولا تتطلع لميراثه بل تنتظر وتنتظر حتى يكافئها الله، وبين شامية خاطفة أزواج تتعرض للرجال وتدعوهم إلى نفسها وتغريهم بالمال والتهديد.

قد نستبيح لأنفسنا أن نستشف هذا الهدف، ولكنه هدف لا يكاد يتبين أمام الهدف الدينى الواضح الذى يملأ كل القصة.

* * *

وهكذا نجد أن قصص الحب قامت بدور التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية، وأدت وظيفة التسلية، واستغلت فى الإعلان والدعاية واستخدمت فى التربية والهداية.